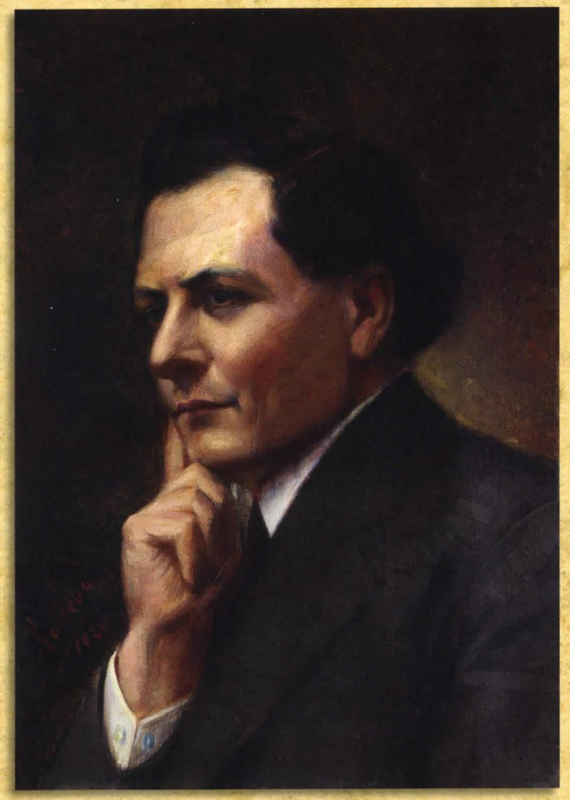

الفَنّان خَليل الصّليبيّ

(١٨٧٠ - ١٩٢٨)

سِيرَتُهُ وَأعمالُهُ

Saleeby

خليل الصليبي بريشته

زيتية - ١٩٢٠ - ٥٥×٣٨ سم

مجموعة لينا هنري مشعلاني

La capture des meurtriers de Khalil Salibi

——

(*Commnniqué*)

Après renseignements recueillis par la gendarmerie et confirmés par les informations du Chef de la Police Judiciaire, la gendarmerie a fait, dans la nuit du 26 au 27 crt, à Ain Arab (N. E. de Rachaya) une opération au cours de laquelle ont été arrêtés à 5 h. du matin :

Said Hanna Hachem
Chebli Salibi
Khalil Ziadé Salibi et de l'agent
assassins des époux Salibi
de la brigade mobile.

L'arrestation a eu lieu, après une poursuite mouvementée dans les rochers par un détachement de 30 gendarmes.

L'opération était dirigée par le Commandant Rosanvalon, Inspecteur Adjoint de la 5ème Compagnie avec les Lieutenants Assad Saleh, Bechir Bakar, et Toufic Osman.

خبر القبض على قتلة الفنّان خليل الصليبي
جريدة الريڤاي، ١٩٢٨/٨/٢٨

كان على الفن أن ينتظر خليل الصليبي، كي تجد الألوان الزاهية سبيلها إلى اللوحة. فكان له الفضل في ولادة أسلوب جديد في التعبير اللوني، مهّد للانطباعية، أن تتجذر في تاريخ الرسم والتصوير في لبنان. لاسيما وأن اثنين من رواد هذه المدرسة الجديدة، قد تتلمذا عليه وهما: قيصر الجميّل (١٨٩٨–١٩٥٨) وعمر الأنسي (١٩٠١–١٩٦٩).

خليل الصليبي شخصية علمانية لافتة لا نعرف عنها إلا ما ظهر منها في نطاق الفن. إلا أن الثورية هي أبرز سماتها. فقد ثار على التقاليد الكلاسيكية التي انغمس فيها حيناً من الزمن، وفقاً لضرورات كسب العيش، لكنه تمرد على النهج الممل للطلبات الفنية، فلبّاها على هواه. إذ كانت همومه الفنية تختلف بشكل جوهري عن عقلية كل من القرم وسرور، اللذين سعيا لتحقيق الشّبه قبل كل شيء لنيل رضى صاحب اللوحة. أما الصليبي فقد كان أيجاد الشبه أمراً بديهياً ذهب إلى تحقيقه بما يرضي ذوقه الفني، معتمداً على عصب يده في تكوين الشكل وبنائه لونياً. هكذا حرر الوجه من القوالب الجامدة للصورة الفوتوغرافية، فأخرجه من حقل الإنارة الجانبية المألوفة في بورتريهات زمانه، كما أعطاه حيوية لم تكن معهودة من قبل.

وإذا كان حبيب سرور قد دفع غالياً لقاء رسمه النموذج العاري، الذي ظل موقعه شبه سريّ وفي الخفاء، فإن الصليبي قد جاهر بجمال العري الذي اتخذ من بعده مساراً تصاعدياً في إنتاج الجيل الذي أعقبه من الفنانين. لكن الصليبي لم يكن إلا تلك الشعلة التي انطفأت باكراً مخلّفة وراءها ذكرى قاسية ومحزنة، إذ فُقد قسم كبير من إنتاجه، والقسم الآخر لا يزال مشتتاً في مختلف العواصم التي انتقل إليها. كما أن فقدان مكتبته وأوراقه الخاصة وكراسات رسومه، هي من الخسارة حقاً لأنها تحول بيننا وبين إمكانية تكوين ذاكرة حيّة له.

بيد أن ما يسعفنا في دراسة حياته وأعماله، هي النصوص والصور التي جمعها نسيبه الدكتور سمير الصليبي، بين دفتي كتاب اقتصر على مجموعته الخاصة من الأعمال، وهي تشتمل على أجمل مراحل الفنان واشهر روائعه، لاسيما المتصلة منها بزوجته كاري

Carrie. إذ يقول: كل ما كتبناه عن الرجل والفنان استوحيناه من صوره وألوانها وما قيل عنها فهي قصة نفسه وسلسلة حياته وتطور ريشته، وقد جهدنا في أن نستنطقها لنسمع من عمق خفاياها حكاية عمره.

طفولة الصليبي وشبابه

ولد خليل الصليبي في ١٢ آذار سنة ١٨٧٠ في قرية بطلون، قضاء عاليه. وهو الابن الوحيد لوالدين عصاميين ملاّكين، هما مخول وسعدى الصليبي. كان جبل لبنان في ذلك الوقت متصرفية ضمن السلطنة العثمانية، ولم يكن التعليم متوافراً للجميع إلا ضمن الشروط المتواضعة لمدرسة القرية، حيث تلقى فيها دروسه الابتدائية. وكانت المدرسة عبارة عن غرفتين في مبنى حجري تظلله السنديانة. تميز منذ حداثته عن سائر أترابه، إذ قلّ أن خالطهم أو لعب معهم. فقد كان يسرح على هواه في حقول قريته يفتش عن زهرة برية يرسمها. كان بفطريته متيّماً باللون. أول أداة استخدمها للرسم كانت عود الثقاب، قبل أن ينتقل إلى القلم والفحم. لكنه لم يلاق في صغره أي بوادر تشجيع على ممارسة التصوير، بل بالعكس كان يوبخ في البيت وفي المدرسة فيقال له: «لعبك بالألوان والأقلام يلهيك عن درسك»[١].

يعود الفضل في بعث النهضة العلمية الأولى التي نشأت في جبل لبنان، إلى كلٍ من الأخوين الياس وسليمان الصليبي. تم ذلك مع مجيء رجل مسيحي وقور من اسكتلندا يدعى جون لوثيان إلى سوق الغرب ليكون قريباً من مواطن إنكليزي آخر صاحب مزرعة في بحوارة يدعى شارلز هنري تشرشل والذي عرف في ما بعد بشرشر بك[٢]. كانت مدرسة بحوارة هي من أولى المدارس التي أسسها الأخوان صليبي، ثم أنشآ بعدها مدرستين واحدة في عرمون وثانية في بطلون حيث تلقى خليل دروسه الابتدائية، قبل أن ينزل إلى بيروت لأول مرة عام ١٨٨١، لإكمال دراسته في الإرساليات الإنكليزية والأميركية.

هكذا نستشف منذ البداية تأثيرات الجالية الاسكتلندية التي استوطنت في سوق الغرب، على المنهج الفكري والتوجه العلمي لخليل، مما جعله يلتحق عام ١٨٨٦، بالكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية)، لمتابعة علومه العالية. أخذت شخصية الفنان تتبلور في ميولها وطاقاتها المتنوعة، فبرع في الرماية كبراعته في الألعاب الرياضية، وظل يزاولهما طوال حياته، كما أحب المطالعة والموسيقى والعناية بالأزهار التي أتقن زراعتها ورعايتها. وكان في مظهره ممشوق القامة عريض الكتفين شامخ الرأس في مشيته وجلوسه، أزرق العينين، حاد النظر، جهوري الصوت يتكلم باللهجة الجبلية الشوفية مع قافاتها.

شعر الصليبي بالحاجة إلى صقل موهبته الفنية وتطويرها، فعزم على السفر إلى إنكلترا ليلتحق بمعاهدها المتخصصة، وكان دون العشرين من عمره. انتسب إلى مدرسة ساوث كنسنغتون South Kensington القريبة من لندن[٣]، وانتقل في العام ١٨٩٠ إلى ادنبره، حيث تعرف إلى المصورين المعروفين في تلك الفترة وصادقهم.

صورة وثائقية لخليل الصليبي باللباس العربي في أدنبره

مجموعة سمير الصليبي

لقاء الصليبي بالفنان سارجنت

لعل الحدث الأبرز الذي منح شخصية خليل الصليبي أعماقها وصفاتها الجريئة والمتمردة، لقاؤه بالمصور الإنكليزي الأميركي الشهير جون سنغر سارجنت (١٨٥٦-١٩٢٥) John Singer Sargent في العاصمة الإسكتلندية، فصادقه وتأثر بأفكاره. ويعزو سمير الصليبي أسباب هذه الصداقة المتينة، إلى أن سارجنت قد لفته الحوار مع رجل شرقي يعرف الكثير عن شعوب الشرق الأدنى القديم ومذاهبها الدينية، وكان آنذاك يجمع المعلومات عن الديانات القديمة لخلفيات تصاويره الجدرانية لمكتبة بوسطن العامة. وقد سافر لأجل ذلك إلى القاهرة في كانون الثاني من العام ١٨٩٠ وترك للفن من تلك الزيارة صورة الفتاة المصرية عاريته بالحجم الطبيعي[٤].

لم يكن لسارجنت جذور أميركية بكل معنى الكلمة. فقد بدأ دراسته للفن في فلورنسا، ثم انتقل مع والديه للعيش في باريس حيث انخرط في محترف كارولس ديران Carolus - Duran وسرعان ما حقق شهرة واسعة في تصوير الوجوه وهو دون الخامسة والعشرين.

لكن شهرته الحقيقة، سببها الفضيحة التي أثارتها لوحة مدام غوترو Gautreau التي عرفت في ما بعد بإسم مدام إكس Madame X بعدما عرضت في صالون باريس العام ١٨٨٤[٥].

على أثرها انتقل سارجنت للعيش في لندن واتخذ محترفه هناك متنقلاً ما بين العواصم الأوروبية والأميركية يرسم الأغنياء وذوي النفوذ. إلا انه قرر منذ العام ١٩٠٧ أن يرفض طلبات البورتريه، ليحصر إنتاجه في تصوير المناظر الطبيعية في الهواء الطلق.

اعتُبر سارجنت ممثلاً للانطباعية الفرنسية في لندن، لما تمثّله محاولاته المبكرة من استيعاب المنهج الفني لأسلوب مونيه، لاسيما أن سارجنت قد عرض معه جنباً إلى جنب، ومع آخرين من زملائه، في المعرض الثاني لصالون الفنانين المستقلين عام ١٨٧٦، كما أقام مع مونيه معرضاً ثنائياً في غاليري جورج الصغير في باريس[٦].

بالطبع نستطيع أن نضع أيضا خليل الصليبي في مقام سارجنت، كممهد للأسلوب الجديد في التلوين والنظر إلى الموضوعات وطريقة معالجتها. قد يتشابهان في تمردهما وثورتهما على التقاليد الاجتماعية وأسلوبهما المتجدد، في مرحلة مفصلية من الزمن المنفتح على الحقائق البصرية الجديدة والتحديات الاجتماعية والتأملات التي ترفع من مقام الاكتشافات الحديثة لعلاقة اللون بالنور.

عندما التقى الصليبي سارجنت كان لا يزال رساماً كلاسيكياً أكاديمياً يبحث عن أسلوب يتميز به. وكان سارجنت حينها من اشهر رسامي البورتريه، فأعُجب به أيّما إعجاب. لعله أدرك لأول مرة المعنى الحقيقي لسمات التحرر في الفن، وتعلم منه كيفية تحقيق الشكل بالضربات اللونية.

وبناءً على نصيحة صديقه سارجنت، سافر الصليبي إلى الولايات المتحدة الأميركية قرابة العام ١٨٩٥. عاش فيها فترة وجيزة من الزمن. تعرف إلى معالم القارة الجديدة الواسعة، إلى شعوبها المختلفة الأجناس والألوان والثقافات، إلى مدنها النامية وصناعاتها المزدهرة وإلى تاريخها وفنونها.

لكن الولايات المتحدة لم تأسر مخيلة خليل الصليبي لتجتذبه وتبقيه، كما فعلت بالكثيرين من المهاجرين اللبنانيين[٧] الذين رأوا فيها ارض الميعاد وينبوع الثراء. غير أنه عثر في مدينة فيلادلفيا على أنشودة حياته كاري أود Carrie Aude فتاة أميركية من أصل ألماني اجتذبت قلبه، فأحبها وتزوجها. «كانت كاري مثقفة راقية جميلة المبسم والمحيّا، شقراء البشرة، ممشوقة القامة، معسولة اللسان، فهمت خليلاً ونهجه وصراحته، ووعت مشاعره وحسه الفني، فوقفت إلى جانبه في كل ما أقدم عليه»[٨]. بعد زواجهما بفترة قصيرة، قرر الصليبي العودة إلى إنكلترا، مصطحباً معه زوجته الشابة إلى أدنبره أولا ثم إلى لندن. ولا يسعنا هنا إلا أن نتساءل لماذا لم تستهو أميركا الفنان خليل الصليبي؟ وما هي الاتجاهات والمدارس الفنية التي كانت سائدة آنذاك في القارة الجديدة؟

لم يكن ذلك مآل الصليبي وحده، بل كان قدر معظم الفنانين الأميركيين أنفسهم أمثال سارجنت وجيمس ماك

نيل ويسلر (١٨٤٣-١٩٠٣) James Mc Neill Whistler الذي عاش طفولته في روسيا ثم عاد من أجواء الثراء الفاحش الإمبراطوري إلى الفقر في مزرعة والدته في ماساتشوستس، فما طابت له الحياة فيها. وما إن قرأ كتاب «حياة البوهيمي» La Vie de Bohème، الذي يتحدث عن الحياة الحرة التي يعيشها طلاب الفن في باريس، حتى سافر إلى فرنسا إلى غير عودة. وكان الفنانون الفرنسيون منهمكين في تركيب الأفكار التي سرعان ما تطورت ودعيت بالحركة التأثيرية أو الانطباعية التي قدّر لها النماء يوماً بعد يوم[٩].

كان الرسامون الذين حاولوا يائسين أن ينزعوا جذورهم الأميركية شديدي الإعجاب بالثقافة الأوروبية. إذ لم يكن لأميركا جذور فنية، إلا ما تستقبله من إنتاج مصدره القارة الأوروبية. كما أنها كانت بنظر الأوروبيين، هي المنفى البعيد المليء بالغرابة والمقبل على خصوبة الأفكار الجديدة[١٠]. وفي هذا المضمار تساءل فيلسوف الفريكة أمين الريحاني، عقب جولته على غاليريات الفنون في نيويورك عام ١٩٢٠ قائلاً: «هل يوجد فن أميركي؟ وأجاب بأنه إذا اعتبرنا الفن كمنتج مثل أي سلعة صناعية محلية فالجواب هو لا. لكن إذا نظرنا إلى الفن كعمل فكر وإبداع متفاعلَين مع تيارات الثقافة، ففي إمكاننا تأكيد وجود فن هو مزيج أميركي-أوروبي، علماً أن أوائل الفنانين الأميركيين كانوا يحملون الجنسية الإنكليزية»[١١].

الدراسة في باريس

ما إن وطئت قدماه باريس قرابة العام ١٨٩٦، حتى سارع خليل الصليبي للالتحاق بمحترف الفنان بيار سيسيل بوفي دو شافان (١٨٢٤-١٨٩٨) Puvis de Chavannes الذي كان يتمتع آنذاك بمركز مرموق في الأوساط الفنية، لأسلوبه المتميز بخياله الشعري المنسجم مع تيار الرمزية الذي كان هو أحد أعمدتها. إذاً كان دو شافان في ذروة مجده وشهرته، ولكنه أيضا كان في أواخر سني حياته. ويقال انه حين اطلّع على أسلوب تلميذه اللبناني، صرّح له بأنه تبين في ريشته لمسة معلمه الكبير اوجين دولاكروا.

الواقع أن مدرسة دو شافان، لم تستهو الصليبي، كما استهوت جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) لما يجمع بينهما من شغف للخيال والشعر والأحلام الرمزية بالعالم الفردوسي. بل وجد هواجسه الفنية أقرب إلى أحلام الجيل الجديد في توقه إلى الثورة اللونية والنبرات المضيئة للنور والظلال البنفسجية التي تهيمن على أعمال الفنانين الانطباعيين. وقد تزامن وجود الصليبي في باريس مع معرض أقيم لأعمال رينوار Renoir (١٨٤١-١٩١٩) في متحف اللوكسمبورغ Luxembourg عام ١٨٩٧ ، فبادر للتعرف إليه بإحساس من وجد أخيراً ضالته المنشودة.

كان رينوار وقتئذٍ يكبر الصليبي بثلاثين عاماً وكان ذائع الصيت، يتمتع بشهرة كبيرة، بعدما وهب الانطباعية أروع نفحاتها. إلا انه في مرحلته الأخيرة لم يعد يهتم لمسألة تثبيت المشاعر الهاربة واللحظات اللونية المتقلبة في الطبيعية، بل استقرت موضوعاته على مخاطبة أجساد العاريات بنزعة حسية وشهوانية[١٢].

وقد فتن رينوار الصليبي بتفتيشه الدائم عن النور، كما أن عارياته الشقراوات اليافعات سحرنه وتركن بصماتهن العميقة على مخيلته. هكذا بات بمقدورنا تحسس شغف الصليبي بتصوير المرأة والنموذج العاري عموماً، على ضوء التجربة العميقة التي عاشها بقوة أول مرة مع سارجنت وتالياً مع رينوار. هذا الاختزان المعرفي والإطلاع على مختلف الاتجاهات الفنية لن يجد سبيله الى ملوانة الصليبي في تحرره الشكلي واللوني، إلا في فترة لاحقة من حياته. إذ ظلت أعماله في سنيه التكوينية التي أمضاها متنقلاً بين باريس ولندن، يغلب عليها الطابع الكلاسيكي.

رجوع الصليبي إلى لندن

من باريس عاد الصليبي إلى لندن سنة ١٨٩٨ واستمر فيها حتى العام ١٩٠٠، محافظاً على شغفه بتصوير الوجوه. «وقد شبهت لوحاته بلوحات السير جوشوّا رينولدز (١٧٢٣-١٧٩٢) و السير توماس لورنز (١٧٦٩-١٨٣٠) سيدَيّ التصوير الشخصي في القرنين الثامن عشر وأوائل التاسع عشر»[١٣] لما تنطوي عليه من

الراعي بالقبعة – خليل الصليبي

زيتية – حوالي ١٨٩٨ – ٤٦ × ٣٨ سم
مجموعة هنري جورج مشعلاني (لوس أنجلوس)

دقة وبراعة لونية. من أبرز أعمال تلك المرحلة، «فينوس ميلو» التي حازت الجائزة الذهبية لصالون إدنبرغ، ولوحة «الراعي بالقبعة» التي نالت جائزة تقديرية في إحدى المعارض التي أقيمت في سويسرا[١٤]، كما دخلت لوحاته في مقتنيات بعض متاحف الفن في لندن، منها اللوحة المحفوظة في مقر مجلس النواب البريطاني[١٥].

ورغم الأمجاد التي حققها خليل الصليبي في لندن آثر العودة إلى لبنان، ولم يفلح نسيبه اللندني كالب الصليبي الذي اشتهر كعالِم في البيولوجيا، في إقناعه بالبقاء معه فيها. هكذا عاد الصليبي إلى لبنان يملأه الشوق إلى جمال طبيعته وبحر أنوارها، ليبدأ صفحة جديدة من حياته.

في ربوع لبنان

رجع خليل إلى وطنه مع زوجته كاري عام ١٩٠٠، استأجر بيتاً في حي القنطاري ببيروت على مقربة من خليج مار جرجس، سرعان ما تحول موئلاً للأصدقاء والمعارف والنخبة من أهل السياسة والمجتمع والفن. ثم اتخذ محترفاً له في مبنى مطعم فيصل- شارع بلس مقابل الجامعة الأميركية. وكان يملك هذا المبنى جورج بك مشعلاني، وهو من الشخصيات المرموقة في سوق الغرب. فقد منحه الملك فؤاد في مصر لقب «البكوية» تقديراً لخدماته، لما كان قيّماً على القلعة في القاهرة وهي المركز العسكري المختص بشؤون الجيش وتمويله عدةً وعتاداً أيام الانتداب البريطاني على مصر أوائل القرن العشرين. وقد ترك خليل الصليبي لوحة زيتية رائعة لجورج بك بالحجم الطبيعي، مرتدياً ملابسه العسكرية المزدانة بالأوسمة التقديرية، كما صور أيضا وجه زوجته السيدة نبيهة مشعلاني[١٦].

ويشير د. سمير الصليبي «إلى أن جورج بك مشعلاني يمتلك مجموعة كبيرة من لوحات للصليبي، من بينها صورتي والده ووالدته. وعلى الأرجح أن جورج بك كان يأخذ من خليل لوحات بدلاً من أيجار المحترف الذي كان يشغله»[١٧].

وكان خليل يأنس إلى عزلته في منزله الريفي في الشقيف، على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم عن سطح البحر، وسط غابة من الصنوبر والشربين، يطل على كروم العنب في منحدر بطلّون تحت قدميه يسبح نظره ويستغرق في التأمل والاستمتاع بألوان الشمس المتنقلة على الصخر والشجر. غير أن الصليبي لم ينقطع عن الغرب، بل ظل على علاقة وثيقة بفنونه. سافر مرارا إلى باريس ونيويورك وشيكاغو، حيث صوّر أعماله وعرضها.

أما خلال الحرب العظمى الأولى فقد اقتصرت رحلاته الفنية على القاهرة واسطنبول، حيث صوّر فيهما شخصيات أدبية وسياسية. بعد إعلان دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ استأجر خليل بيتاً صيفياً في سوق الغرب، المنتجع الأنيق ومعقل العائلة الصليبية، ليكون على مقربة من الأنسباء والأصدقاء. فحوّل بيت نسيبه المعلم جرجس الصليبي الأستاذ في ثانوية البلدة، مقراً يستقبل فيه الزوار و يصوّر الكثيرين من أبناء البلدة والجوار، وقد ترك لنا عن تلك الحقبة لوحات رائعة لقرويين بأزيائهم الجبلية وقبعاتهم، لا تضاهيها سوى عذوبة الألوان في لوحات النساء الفاتنات اللواتي خلّدهن بريشته. ولكن كاري كانت احب المواضيع إلى عينه وقلبه، وظلت عروسه وملهمته حتى آخر عمره[١٨].

المعلم والمؤسس للفن الجديد

تناقلت بعض المراجع التي تطرقت إلى حياة الصليبي بأنه مارس مهنة التعليم في الجامعة الأميركية، وقيل انه أعطى دروساً في الرسم حتى عام ١٩٢٠[١٩]. لعل لوحته الشهيرة التي صورها في حرم الجامعة الأميركية هي التي أوحت بذلك. وبعد البحث والتدقيق في سجلات أساتذة الجامعة الأميركية التي تعود إلى تلك الحقبة، ثبت على أن الصليبي لم يخض هذا الغمار، ولم يثنه شيء عن الانصراف الكلي لفنه[٢٠]. ولكنه كان أستاذاً لفنانين أثنين كان لهما دور بارز في مسار الحركة التشكيلية الحديثة هما عمر الأنسي وقيصر الجميّل.

لقاء الصليبي بالأنسي

حكاية لقاء الفنان عمر الأنسي (١٩٠١-١٩٦٩) بأستاذه خليل الصليبي، يرويها الأنسي بنفسه، فيقول بأنه كان عام ١٩٢٠ طالباً سنة أولى في كلية الطب في الجامعة الأميركية، وكانت موهبته الفنية ظاهرة منذ ذلك الحين. إذ كان ينشر رسومه في المجلات التي كان يصدرها الطلاب، يتذكر من بينها تصويراً للأمير فيصل، بالألوان المائية نُشر في مجلة «الثمرة». فما كان من زميل له في الدراسة إلا أن قصد محترف الصليبي قبالة الجامعة الأميركية، وعرض عليه رسومه، فأعجب بها وطلب أن يراه. وكان الأنسي يعيش مرحلة عصيبة من الحيرة بعد وفاة والده، وضغوط أهله لترك الدراسة والانصراف إلى التجارة. ولكن قراره النهائي بالانصراف للفن جاء إثر عبارة قالها له الصليبي: «الحياة تستطيع أن تخلق كل يوم تاجراً ولكنها لا تخلق كل يوم فناناً»[٢١].

بقرتان في حقل – عمر الأنسي
زيتية – {د. ت}
٣٨,٥ × ٥٥ سم
مجموعة جميل ملاعب

هكذا شجع الصليبي الأنسي وحثه على احتراف الفن وضرورة تعلم أصوله ومبادئه، في الوقت الذي كانت هذه المهنة لا تتناسب مع معايير المجتمع البورجوازي التقليدي في بيروت. كما دعاه للعمل في محترفه في شارع بلس الذي كان يمثل وقتئذٍ ملتقى المجتمع الكوزموبوليتي والانفتاح على الأفكار الطليعية في مجال الفن. وثمة لوحة لطالما كانت مجهولة للأنسي، وُجدت بين بقايا لوحات محترف الصليبي، التي تناقلها تجار اللوحات، تصور منظراً رعوياً لبنانياً شبيهاً بالمناظر الرعوية في فن سرور، لبقرتين يسوقهما فتى إلى الماء لترتويا، تحمل الملامح الأولية من شغفه اللوني رغم ما يطغى عليها من المناخ الكلاسيكي.

وبعد أن تتلمذ الأنسي في محترف الصليبي طوال ثلاث سنوات (١٩٢١-١٩٢٣)، غادر إلى الأردن ليعطي دروساً في الرسم لأولاد الأمراء الهاشميين[٢٢]. ووفاءً لأستاذه فقد أرسل الأنسي إلى الصليبي هدية عبارة عن لوحة مائية لمنظر الجمالة في الصحراء موقعة عام ١٩٢٤، وهي تمثل مشهداً ينبض بحياة البادية مع كلمة إهداء «إلى معلّمي»، وهي تعبر عما يكنه له في نفسه من تقدير ومحبة. ونالت المائية إعجاب الصليبي فاحتفظ بها بين لوحاته. «وقبل أن يقصد الأنسي أكاديمية جوليان Julian في باريس عام ١٩٢٧، نصحه الصليبي بلقاء الفنان يوسف الحويّك، الذي ساعده كثيراً في الاستمرار في الدراسة الفنية هناك، كما ساعده في كسب العيش من الفن حين كان يعاني من ضيق ذات اليد»[٢٣]، واستمرت علاقة الصليبي بالأنسي إلى ما يشبه الأبوّة الفنية.

الصليبي يكتشف موهبة الجميّل

ومن تلاميذه الذين اكتشفهم وساعدهم وحققوا من خلاله الشهرة الفنية، قيصر الجميّل (١٨٩٨-١٩٥٨). رآه الصليبي لأول مرة مصادفة، إذ كان يعمل في صيدلية يوسف الجميّل الكائنة في ساحة البرج واطلع على رسومه الفحمية الأولى وكانت عبارة عن دراسات منقولة عن لوحات معروفة، فشجعه على احتراف الفن والتعاطي مع أنابيب الألوان بدلاً من العقاقير، فالتحق الجميّل بمحترفه وتتلمذ عليه زهاء ثلاث سنوات (١٩٢٣-١٩٢٦) قبل أن يتوجه بدوره الى باريس سنة ١٩٢٧، ليتابع تحصيله العالي أسوة برفيقه الأنسي في أكاديمية جوليان في باريس. «هكذا نجد أن توجّه الجميّل نحو الفن يدين بالفضل لأستاذ استثنائي بعطائه وفضوله واستطلاعه الذي لا يكل وحماسته الكبيرة هو خليل الصليبي. شجعه في لحظات الشك والتخبط وأضاء له

الطريق بتوجيهاته ونصائحه ومنحه فرصة أن يعيش أجمل حالات الدهشة وهو يلتقي ذاته»[٢٤].

فأسلوب قيصر الجميّل يدين له، مباشرة أو غير مباشرة، من خلال عناصر عديدة تبرز على مستوى تأثره واستيحائه للموضوعات بدءاً من المرأة وموضوع العري وصولاً إلى المناظر الطبيعية. إذ يوجد لديه مطابقة أساسية مع الصليبي في بنية الأخضر - الأزرق الذي يتجلى في الديكور النباتي وفي الأحمر الفج الساطع القرميدي. علاوة على مستوى المعالجة التصويرية في استكشاف إشارات العالم المرئي. ولدى قيصر الجميّل نوع من الحمى والحمية المتأتيين من احتكاكه بالصليبي لأنه تعلمهما منه[٢٥].

ولم تكن علاقة الصليبي بالجميّل تقتصر على علاقة الأستاذ بتلميذه، بل هي اقرب ما تكون إلى علاقة القرابة التي تطورت لتتوطد أواصرها بين العائلتين. ومثلما كان الصليبي أباً روحياً للأنسي، كذلك كان أباً روحياً عطوفاً للجميّل. ورغم أن الصليبي لم ينجب ولداً يرثه في الحياة فإنه رزق بفنانين ورثاه في الفن.

من التلامذة المغمورين

يبدو أن للصليبي تلامذة مغمورين ترددوا على محترفه، منهم أديب مظهر (١٨٩٨-١٩٢٨) رائد الرمزية في الشعر العربي الذي «كان له ذوق في الألوان والتصوير وفي الموسيقى والرياضة، وهو صديق قيصر الجميّل الفنان، ولطالما التقيا في غابة بولونيا، وهما أطلقا هذا الاسم على تلك الناحية وأحبّا الجبال حباً صوفياً»[٢٦]. تخرج من الكلية الانجيلية السورية جراحاً في طب الاسنان العام ١٩٢٤، وعلى الارجح أنه في تلك المرحلة أخذ يتردد على محترف الصليبي، فتأثر بأسلوبه وافكاره التحررية. عُرف عنه انغماسه في السياسة فكان وطنياً يتقد حماسة، ورياضياً مفعماً بالعافية والجمال وبهاء الطلعة، احب نساء كثيرات ولكن علاقته المشبوهة بإحدى النساء من ذوات النفوذ أودت بحياته فمات مسموماً وهو في ريعان الشباب. لم يتبق من انتاجه سوى لوحة من نوع الصورة الذاتية وهي غير ممهورة بإمضائه ولكنها تحمل نفحات من أسلوب الصليبي.

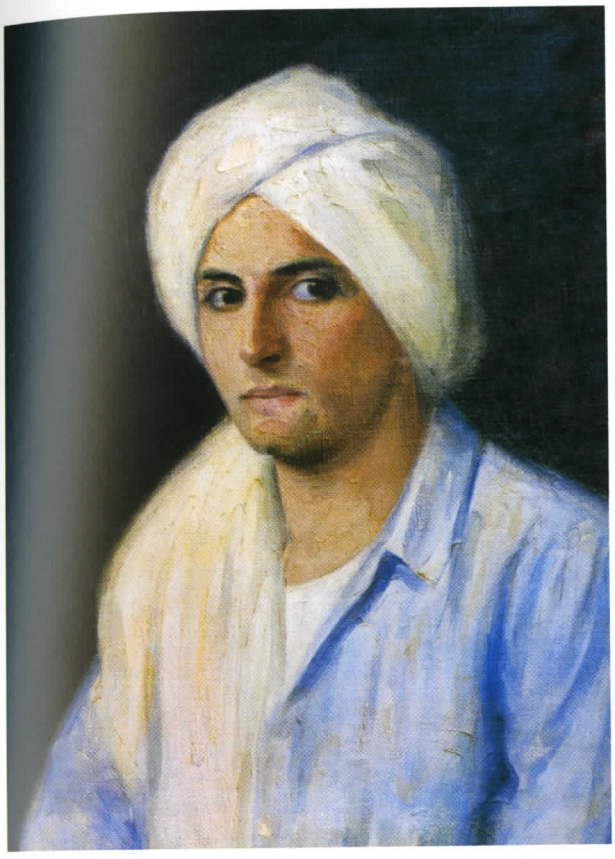

أديب مظهر بريشته

زيتية - حوالي ١٩٢٣ - ٦٠,٥ × ٥٠ سم

مجموعة خاصة

تلك العلاقة بين الأستاذ وتلميذه، التي ظلت طويلاً طي الكتمان، ما كانت لتنكشف أسرارها لولا عثور المهندس غسان كلنك على لوحتين للصليبي إحداهما تحمل عبارة إهداء، وجدهما في بيت نسيبه أديب مظهر في قرية المحيدثة- بكفيا (قضاء المتن الشمالي). هكذا تلاقت عن غير عمد شخصيتان على جانب كبير من التشابه، في التمرد والصراع والدرامية والاستشراف، حتى أن القدر جمعهما في الموت بطريقة الغدر، فلقيا حتفهما في العام نفسه، وأثار مقتلهما الكثير من الشكوك والشبهات واللبس.

معاناته ثم رحيله

بدأت معاناة الصليبي تتضح منذ العام ١٩٢٣ اثر نزاع نشب بينه وبين الفلاحين على سقاية الماء من نبعة «عين الجر» في ارض خليل في بطلّون. وقد طاول الخلاف العائلة الصليبية نفسها فانقسمت بين مؤيد ومعارض، وتطور إلى دعاوى ومحاكم وتفاقمت إلى

أكثر من محاولة اغتيال. إثر ذلك طلب خليل من السلطات الفرنسية السماح له بترخيص حمل مسدس للدفاع عن النفس. وكان بارعاً في الرماية لا يهاب أحداً. قال مرة لتلميذه قيصر الجميّل «لا أخشى من يأتيني من أمامي ليقتلني اعرف أني سأتمكن منه إلا إذا باغتني من الخلف»[٢٧]. لم يثن ذلك خليلاً عن الإذعان لرغبة أهالي القرية، بل عاند كعناد الصخر للريح وتحدى المجتمع القروي برمته، ونمت لديه بذور السخط والنقمة والغضب على مجتمعه. ذلك فضلاً عن شعوره بالظلم في ظل دولة الانتداب، لأسباب عديدة منها التسيب وإهمال القضايا الإنسانية المحقة ومزاحمة الفنانين الفرنسيين للمصورين في لبنان.

وزادت المرارة والخيبة وقلة الحيلة من وطأتها على نفسية الصليبي، التي أخذت تتفجر غضباً وتهكماً، في رسائله التي حررها لتلميذه وصديقه قيصر الجميّل. فراح يتهكم بسخرية على الفنان الفرنسي ميشليه Michelet، الذي كان مقيماً في بيروت في تلك الآونة فيقول: «الشغل عدم. الوحيد الذي يشتغل هو الغريب. صلّح استيكو. هذا الاسم أعطيته لميشلاي. انه في الشام. عملوا معه مقاولة بنحو ألفي ليرة ذهباً ليصور معلمي المدارس في الشام. تأمّل ونحن هنا نموت جوعاً»[٢٨].

في أثناء تلك المحن وجد الصليبي، المعتاد بطبيعته على السفر وحب الترحال والتنقل بين عواصم المدن، ملاذاً جميلاً وآمناً في جزيرة قبرص التي كان يمضي فيها بضعة أسابيع من عطلة فصل الصيف بدءاً من عام ١٩٢٣. فقد وصفها بجنة عدن لجمالها الطبيعي ومياهها وفاكهتها. أحبها لأنها تشبه لبنان في طبيعته وعاداته وتقاليده، وآثرها ربما لدواعي قربها الجغرافي من موطنه. إذ أن مفارقة الأصدقاء له لا سيما الأنسي والجميّل في دراستهما في باريس جعلته وحيداً، عزاؤه كتابة الرسائل إليهما. فهو يقول للجميّل، بأنه قصد قبرص: «ليس خوفاً أو هرباً إنما لراحة بالي وجسمي وراحة امرأتي المسكينة التعبانة»[٢٩].

وفي بعض الرسائل يتحدث الصليبي عن الظنون التي تساوره، كما يكشف خفايا الدسائس التي حيكت حوله. فقد اتهم خليل قريبه ايليا[٣٠] بأنه يصرف على الياس «الأرمني» ومعه اثنان من آل الصليبي مسلحين بالسلاح الكامل يضربون طوقاً حول بيته في الشقيف كي يقتلوه، وبأنه اخبر الشرطة فرأتهم بأم العين وجلب شهوداً، كل ذلك ذهب سدىً لأن المحقق العدلي والمدّعي العام وبعض رجالات القضاء كانوا إلى جانب آل الصليبي، مشيراً إلى الحال التي وصلت إليها البلاد قوله: «هذه سوريا يفضلوا الزعران على الاوادم»[٣١].

لا يخفي خليل الصليبي أسفه وندمه لأنه عاد إلى لبنان. يقول: «من تعاستي أنني أتيت إلى هذه البلاد ولو بقيت سنة ١٩٠٠ في باريس لكنت اليوم في أوج المجد»[٣٢]. في المقابل فقد كان فرحاً لوجود قيصر في باريس يكتسب ويتعلم الفن ويرقى عن مستوى التعاسة التي تميزت بها الحال الثقافية والاجتماعية والحياتية آنذاك في بلادنا. لذلك سعى مع وزير المعارف وقتئذٍ الشيخ محمد الجسر، لكي يجدد المنحة الدراسية المعطاة لقيصر سنة ثانية في باريس، فيقول خليل لقيصر «هنيالك في باريس. سأبيع رزقي هنا وأذهب لأسكن ولو سنة واحدة بعد وأموت مجبور الخاطر. نحن هنا موتى لا نقشع ولا نسمع. بالحق الموت أحسن من هذه الحياة»[٣٣].

ويتعاظم سخط الصليبي في أيامه الأخيرة لأن الدعاوى حالت بينه وبين رغبته في بيع ممتلكاته. كان يحلم بالسفر إلى قبرص لرسم المناظر الطبيعية. ولكن أحلامه تلاشت أمام شعوره بالخسران، حتى حديقة بيته في الشقيف التي كان يعتني بها، يبست وماتت زهورها. فيكتب إلى تلميذه: «أنا مريض ودماغي مشغول كل الوقت بالدعاوى، كما أن الحَرّ لا يطاق والشغل عدم. لو قدرت لبعت حالاً كل شيء وذهبت إلى باريس أو إلى أميركا»[٣٤].

فالمرارة التي لازمته والقرف والضيق الذي يشبه الحصار وشعوره انه مهدد كل لحظة ودقيقة، أفرغت قواه من الانصراف للفن، فراح يبذل كل ما لديه من المال في سبيل كسب الدعاوى، ثم الاستئناف مجدداً إلى الحد الذي جعل الصليبي يستدين مبلغاً من المال من تلميذه عمر الأنسي. ذلك ما يقوله لقيصر الجميّل في الكلمات الأخيرة التي ختمت آخر رسائله: «أنا طفران للّه. الجنينة كلها قلعناها. عنتر ذبحناه. لم يعد عندي زهور أبداً. وقصدي أن أؤجر بيتي في الصيف واذهب إلى

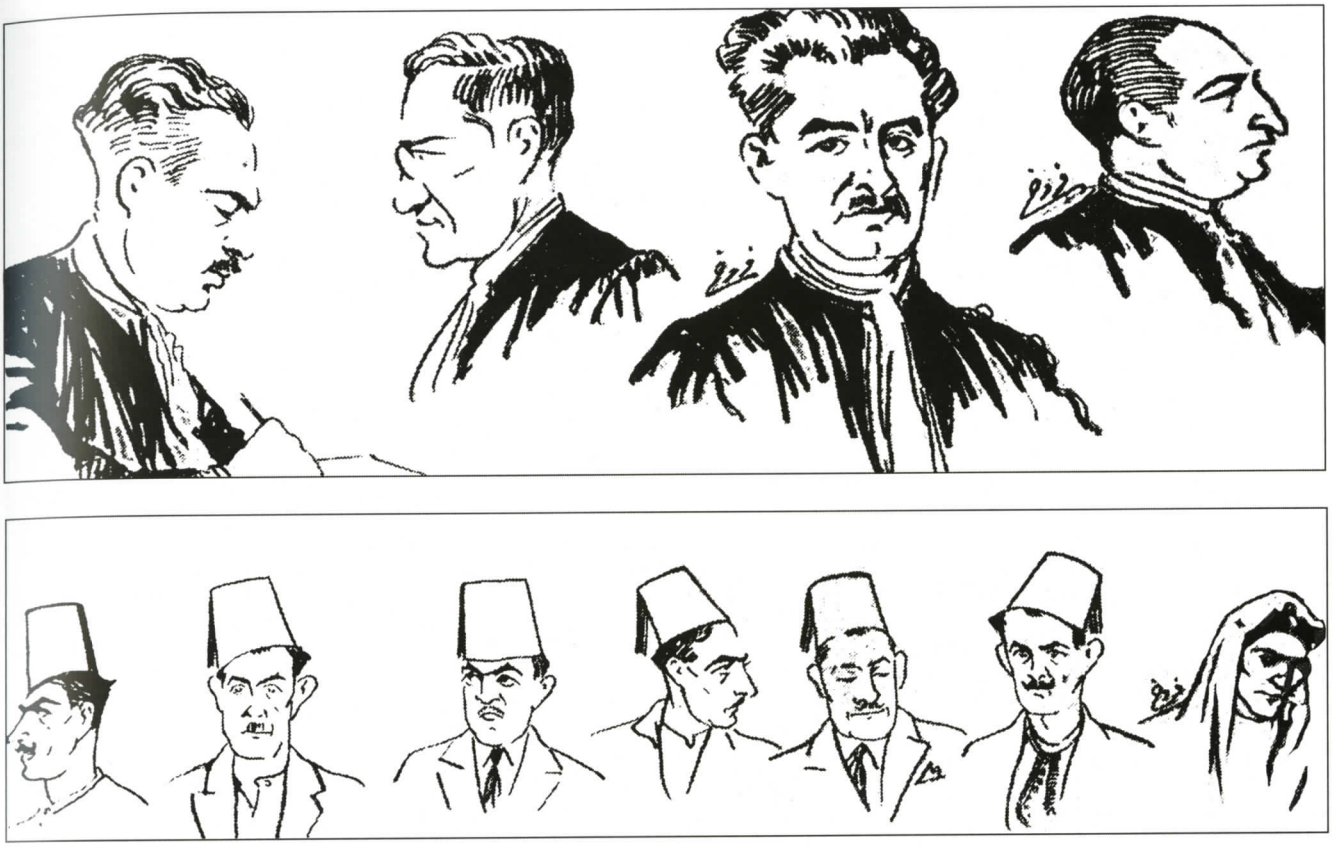

من محاكمة قتلة الصليبي وزوجته – مصطفى فرّوخ

رسوم بالحبر الصيني – في الأعلى وجوه أربعة محامين
وفي الأسفل وجوه الجناة

قبرص واصرف كم يوم في قبرص واعمل هناك مناظر. قدمت فكرة للمندوب السامي بقبرص أن اعمل صوراً من الجزيرة للعرض في أوروبا على حساب الحكومة، لأجل إعلان للجزيرة فاستحسن الفكرة ولكنه أرسل واستدعى مصوراً من بلاد الإنكليز لهذه العملية. ما أتعسنا ! ما لنا بلاد ولا أحد يهتم بنا والموت أحسن من أن نولد في هذه البلاد المنحوسة»[٣٥].

عشية يوم السبت السابع من تموز سنة ١٩٢٨، كان خليل الصليبي في طريق عودته من المسبح إلى بيته في القنطاري مع رفيقة عمره، هاجمه بغتة ثلاثة مسلحين فأردوه قتيلاً مع زوجته كاري التي ذبحت ذبحاً[٣٦]، كأن القدر الذي جمعهما في الحب واللون والنور، ختم حياتهما بالفاجعة.

مات الصليبي عن عمر يناهز الثامنة والخمسين وهو في أوج مجده الفني وعطائه وشهرته. وكان موته فجيعة صارخة وجريمة مدويّة بالنسبة لأهل الفن والفكر والثقافة. وإثر تدخّل القنصلية الأميركية التي كانت تتولى فيها كاري منصبًا رسميًا تمكنت الشرطة من ملاحقة الجناة[٣٧]. وقد حاول هؤلاء أن يشوهوا سمعة الصليبي، فصوروه وحشاً مفترساً لأعراض النساء والبنات، مما زاد استنكار أصحاب الضمائر الحرة من المثقفين، ضد ما يوجّه إلى نابغة لبنان في التصوير، من هذه الترهات التي هو منها براء. فقد اعتبرت هذه القضية من أهم القضايا التي عرضت على المجلس العدلي، كما كان قتل الصليبي وزوجته، هو أفظع قتل سمعت به البلاد في ذلك الحين.

وفي بيروت في ١٨ تشرين الأول سنة ١٩٢٨، علّق على المشنقة كلٌ من سعيد هاشم وصهره خليل زيادة الصليبي، وأغلق الستار على آخر فصل من رواية الصليبي المحزنة، التي ذهب فيها الفنان ضحية جفاف طبعه وجهل أقربائه. ومن العجب أن الماء الذي هو إكسير الحياة وكوثرها الخالد ومرآة الضوء واللون، ينقلب في المجتمع القروي مصدراً للأحقاد والتنافر والموت.

قضية الصليبي لم تكن قضية خلاف على سقاية الماء فحسب، بل هي قضية مجتمع برمته عاش أزمات صراعه مع نفسه أولا وجهله ثانياً واستسلامه لمن ينوب عنه في الحكم و القرار وإدارة شؤون البلاد. هو صراع مع تقاليد لا تقبل بالتغيير والتجديد. اللافت في قضية الصليبي أن شريحة من الرأي العام قد عارضت عقوبة الإعدام للجناة، متذرّعة بمسائل أخلاقية تتعلق بجرأة الفنان نفسه، الذي تحدى المجتمع ورسم زوجته عارية بما ينافي الحشمة، للتغطية على جريمة القتل المتعمد. «فخليل الذي كان مشدوداً إلى الآفاق لا إلى الجذور، إلى القوارب لا إلى الشجر، لم تقتله جرأته. قتله نبع الماء. قتله الجذر الذي ناداه فلبّاه»[٣٨].

شهادات

قدّر محبو فن الصليبي أهمية ما جادت به ريشته في عالم الفن، فكتبوا عنه غداة رحيله، كلمات وكلمات. قال فيه فيلسوف الفريكة أمين الريحاني: «خليل الصليبي كان أنشودة صلاة في عالم الفن. إرثٌ غني من كنوز لبنان الخالدة». وقال عنه عمر الأنسي: «لم يترك الصليبي لهذه الدنيا أولاداً، بل بقيت لنا لوحاته وهي الإتقان والكمال والبهاء بعينه. ويَصُح أن يقال فيها ما قاله ليوناردو دافنشي: انه ليجف لسانك من العطش ويضني جسمك السهر والتعب قبل أن تتمكن من التعبير بالكلام عمّا تقدمه اللوحة الفنية جاهزاً بارزاً أمام عينيك». وعن مآثر أستاذه ذكر قيصر الجميّل مأثورة قال: «انتقد الصليبي بشدّة وعارض تعليم الرسم في المدارس تعليماً نقلياً ببغائياً، ورأى أن التصوير يقتضي أن يكون مباشرة عن الطبيعة، لتتدرب العين على الملاحظة النابضة فتبصر ما تمر عليه، لا تبقى عنه عمياء. إذ ذاك تتفتح الأبصار وتُرهف الحواس وتُدرك مفاتن الجمال».

ورأى مصطفى فرّوخ في خليل الصليبي فناناً يفاخر به لبنان: «كان في ألوانه شاعراً مبدعاً وموسيقياً ملحناً كثير الأناقة، لما كانت تتسم به ألوانه من النضارة والانسجام والقوة والتحرر»[٣٩].

المعارض

شارك الصليبي في معرض بيروت Foire de Beyrouth الذي نظمته سلطات الانتداب سنة ١٩٢١. وبعد رحيله لم تنقطع أعماله عن الظهور في مناسبات المعارض الجماعية: أبرزها المعرض اللبناني الوطني الدائم الذي نظمته مدرسة الصنائع والفنون سنة ١٩٣٤، ومعرض الفنانين اللبنانيين في المتحف الوطني سنة ١٩٤٧ برعاية الرئيس الشيخ بشارة الخوري، وضم وقتئذٍ كوكبة من الفنانين هم: داود القرم وحبيب سرور وخليل الصليبي وجبران خليل جبران ومصطفى فرّوخ وقيصر الجميّل وعمر الأنسي ويوسف الحويك وصليبا الدويهي ومكاروف فاضل. أما بالنسبة للمعارض الاستيعادية فقد أقيم «لفقيد الفن خليل الصليبي، معرض تذكاري في نادي خريجي الجامعة الأميركية Alumni Club في ١٨ آذار عام ١٩٦٥، حيث عرضت بعض آثاره الفنية، وأكثرها صور أشخاص وصور زوجته الأميركية كاري»[٤٠].

أوجد الصليبي ركائز لونية بصرية هي من الإغراء والصدق والإخلاص ما جعل مساره الفني يظهر منذ البداية مختلفاً. فالمرحلة التأسيسية لدراسته الأكاديمية، لم تكن كما عهدنا لدى القرم وسرور مقرها روما، بل إنكلترا، لذلك نستشف ابتعاد الصليبي عن الثقافة الإيطالية وسائر أشكال الفنون الدينية، وانصرافه إلى نوع آخر من الفن، هو ذلك الذي يعنى بالجمال الراقي الكامن في الوجه الإنساني والجسد العاري، كما يعنى بقوة اللون الذي يختزن جوهر الشكل ويقطفه بحرارة وتلقائية.